العربى

فواصل

6 يوليو 2008

عبد العال الباقوري

مع أننا نعرف يقينا أن الموت علينا حق وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد إلا أنه حين يغتال عزيزا نقول: اختطفه أو خطفه الموت. ولعل هذا أصدق ما يكون بالنسبة للمؤرخ الكبير رءوف عباس، رحمه الله. كان فى قمة صحته، صاحب بنيان قوى ونشاط وفير وعطاء متدفق، كان يجلس إلى مكتبه خمس ساعات متصلة أو أكثر دون أن يكل أو يمل، أو يتحرك ولو فى إطار المكتب الذى يعمل فيه، فجأة شعر بألم فى ذراعه اليسرى، ذهب للعلاج أجرى فحصا شاملا. أثارت نتائجه شكوكا عند معالجيه. بعد فحوص أدق وأشمل تبث أنه أصيب بمرض خبيث فى البنكرياس. وقال الأطباء إنها مسألة وقت، كان هذا فى منتصف يناير الماضى، كان الخبر صاعقة: عن نفسى، لم أصدق الأطباء. وحكيت حكايات عن مرضى أعرفهم عاشوا بورم خبيث سنوات، قالوا: إلا البنكرياس، ارحمونا. قالوا إنها الحقيقة. مع ذلك، كتبت هنا، عندئذ أخاطبه: أنت أقوى من المرض، قالوا: هذا وهم. سألتهم الرحمة.. وفعلا، بدأ التدهور سريعا، أسرع مما كنت أتصور. سبحان الله: بدأ الجبل، كما كنا نسميه يهتز. وبدأت شهور من الأحزان عند أصفيائه من محبيه وأصدقائه وهم كثيرون. إذن صدقت رؤية الأطباء ـ هل نستطيع أن نتقاسم المرض والألم معه؟ كنا نسائل أنفسنا. كان يتماسك، يتألم صمت. أبى أن يعالج على حساب أحد، وذهب إلى باريس وعاد سريعا. كان معنى العودة السريعة أن لا أمل. ولكن رحمة الله واسعة. كنا نمنى أنفسنا. نشفق على حالنا بعده ليس لصداقة أو قرب منه فقط، بل لسببين متكاملين: ما كان ينتظر منه أن يعطيه، وكان يستعد له فعلا، وأن الخسارة فيه لا تعوض. ليس هذا معنى حماسيا، ولكنه تعبير حقيقى وصحيح، سآتى إليه. كان مرضه ورحيله بالنسبة لى خسارة مضاعفة، فقد ربطت بيننا علاقة وصداقة تزيد على أربعين عاما منذ 6691 إلى اليوم الحزين، يوم الخميس 62 يونيو الماضى، بعد لحظات من كتابة «فواصل» العدد الماضى، التى تمنيت فيها «شفاه الله». كانت البداية فى قسم الأبحاث فى جريدة «الجمهورية» الذى شارك فيه على يدى أستاذنا الدكتور محمد أنيس، ولا أذكر أنه حضر إلى هذا القسم بعد رحيل الدكتور أنيس إلى الجزائر. وعمله فى «قسم الأبحاث»، وعمل آخرين من أمثاله من الجامعيين شابته سلبيات منها مثلا أن أبحاثه كانت تضل طريقها إلى النشر بعد جمعها، ويقول المسئول عن ذلك عندئذ: ضاعت، أعمل إيه؟ اشنقونى. فقد كان الأستاذ محمد الحيوان مدير التحرير يرى فى كل من يدخل هذا القسم شيوعيا خطيرا يجب حجب كلماته عن القراء لخطورتها؟ أيام وتواريخ لم تكتب كاملة بعد، فمتى تكتب؟ وبعد انقلاب الرئيس السادات فى مايو 1791 ثم بعد انقلاب مارس 5791 بشكل خاص، ومع رحيل جلال السيد إلى العراق انقطعت تقريبا العلاقة مع رءوف عباس إلا من قراءة أعماله، إلى أن جمعت الأيام فى أبوظبى بين الدكتور محمد أنيس وجلال السيد والعبدلله، وكنا ثلاثتنا من أصحاب العلاقة معه، وطالما جرى الحديث عنه، والمقارنة بينه وبين آخرين مثل الدكتور عبدالعظيم رمضان، رحم الله الجميع، ومن جديد، عادت العلاقة أقوى مما كانت بعد العودة من أبوظبى فى 0991 وكان جلال السيد رابطة العقد. كنا نلتقى أسبوعيا تقريبا، ولما توليت رئاسة تحرير «الأهالي» أعدت تقليدا من صحافة الأربعينيات بنشر مقالات كبار الكتاب فى الصفحة الأولى، وأسهم رءوف عباس فى هذا إسهاما كبيرا ذكر بعضه فى مذكراته «مشيناها خطي» وكان لبعض هذه المقالات دوى خطير، مثل مقاله عن منع الدكتور يونان لبيب رزق عن وضع أسئلة امتحان التاريخ للثانوية العامة بدعوى أنه «قبطي»! فضلا عن يومياته العميقة الجميلة والبسيطة.. ومنذ ذلك الوقت توثقت عرى الصداقة، وأصبح تقليد اللقاء الذى سنه جلال السيد تقليدا ثابتا فى يوم من كل شهر. على الأقل، واتسعت مجموعة هذا اللقاء. كمجموعة ثابتة إلى جانب عدد غير قليل من العابرين من كبار المثقفين والجامعيين وغيرهم. وكانت أحاديثه فى هذا اللقاء من خير ما يصغى إليه الإنسان ويتعلم ويستفيد منه، وفى هذا اللقاء، نبتت فكرة كتابة

مذكراته، وقد أشار إلى هذا فى المقدمة، ولعل مسامرات هذه اللقاءات لو كتبت وجمعت لكانت ثروة تاريخية وفكرية كبيرة.. ولعل بعض الأصدقاء الذين تشغلهم هموم الكتابة المنتظمة يهتمون بكتابة أوسع عن هذه اللقاءات وأحاديثها، ومناقشاتها وطرائفها. ليته كان بيننا، فقد كان أقدرنا على ذلك، إذا كان يكتب بالبساطة والعذوبة نفسها التى يتحدث بها، بساطة وعذوبة ابن الشعب ومؤرخ الشعب، فقد كان قطعة من تربة مصر فى خصبها وعطائها، قطعة فيها مزيج عجيب من أساتذته الكبار أحمد عزت عبدالكريم ومحمد أنيس وأحمد عبدالرحيم مصطفى، كما كان فيه قبس من أبناء الشعب: عبدالله النديم، وأحمد نبيل الهلالى وشهدى عطية الشافعى ومحمد عودة، وهذا المزيج الجامع بين كل هؤلاء له تأثيره الخاص على تلاميذه، ولعل هذا معنى أنه خسارة لا تعوض، أى أنه نبتة خاصة فى ظروف خاصة وطابع خاص.. وإلا هل بيننا اليوم طه حسين آخر أو عباس العقاد آخر، أو نجيب محفوظ آخر أو أحمد بهاء الدين آخر أو مصطفى أمين آخر؟ قد يكون هناك من جاء بعد هؤلاء وتفوق عليهم فى ميدان أو آخر، لكن التفوق هنا إن حدث لا يعنى التكرار، لأن كل واحد من هؤلاء ابن مرحلة، وله دور. وأعتقد أن رءوف عباس فى مجال التاريخ، خاصة التاريخ الاجتماعى واحد من هؤلاء، كان معلما وشاهدا ودليلا، لذلك فهو غير قابل للتكرار والخسارة فيه لا تعوض. والوفاء له لا يكون فقط بالبكاء والعويل والنحيب، وبحفلات الرثاء والتأبين، بل الوفاء الحق هو استكمال رسالته.. وهنا «ما أحلى البكاء على رأس الميت» إلا أن السرعة مطلوبة بإعادة نشر أعماله كاملة، خاصة الأعمال التى نفدت، وجمع بحوثه ومقالاته فى المجلات المتخصصة وفى المجلات والصحف العامة، مثل: فكر والهلال والعربى والأهالى والكرامة وغيرها. وتبويبها ونشرها، فضلا عن النظر فى أوراقه، وأعتقد أنها كثيرة. وهذا واجب تلاميذه وأصدقائه، وزملائه سواء فى كلية الآداب جامعة القاهرة أو معهد البحوث العربية، أو فى الجمعية التاريخية فضلا عن جمع ما كتب عنه لإصداره فى كتاب تذكارى بمناسبة الأربعين.. عندئذ نستطيع أن نقول له: طبت حيا وميتا. ومرة أخرى لو لم أؤمن بالبعث لآمنت به كى ألقاك.

http://www.al-araby.com/docs/1115/article2142177953.html